ثقافة الشجب والاستنكار

عبد الستار قاسم

28/تشرين أول/2008

يبدو أننا نحن العرب، على الأقل فيما يتعلق بالمستويات الرسمية العربية، قد ارتحنـا تمامـا لشجب واستنكار كل اعتداء يقع علينا، وكل إهانة نتعرض لها؛ ولا يبدو أن في جعبتنا أفضل من ذلك. ويبدو أن هناك نموذجا استنكاريا جاهزا للتعبئة يتم إعداده على جناح السرعة لإخلاء السبيل والذمة والتنصل من المسؤولية. نحن نكتفي بوصف الأعداء والمعتـدين بـالمجرمين الحاقدين المتربصين، ومن ثم نعود إلى فراشنا لنرتاح من العمل المضني في نشر الاسـتنكار والصراخ بالشجب.

كان الاعتداء الأمريكي الأخير على سوريا مخزيا للأمة ككل، وجعل عربا كثيـرين يظنـون بأنفسهم أنهم مجرد عاهات تشوه وجه التاريخ الإنساني. وكما قال لي أحـد المثقفـين: "لقـد شعرت بالخزي من نفسي وأنا أسمع الخبر عبر وسائل الإعلام." جنود أمريكيون يترجلون من طائراتهم السمتية في بلد عربي من المفروض أنه في حالة استنفار عسكري وأمني، يقتلـون ويدمرون دون أن تُطلق عليهم رصاصة واحدة. كان من الممكن أن نلتمس العذر، أو للعربي ألا يدلّي بأذنيه إلى الأسفل لو أن جنودا عربا أطلقوا النار واشتبكوا، حتى بدون إيقاع إصابات بالجانب الأمريكي.

قالت جولدا مائير بعد حريق المسجد الأقصى عام 1969 إنها لم تستطع النوم ظنا منهـا أن العرب والمسلمين سيهبون ضد إسرائيل في اليوم التالي للحريق، لكن أعصابها ارتاحت عندما وجدت أن العرب لا يتقنون إلا الشجب والاستنكار. ويبدو ان الأمم قد استقر رأيهـا بـالعرب بأنهم أمة مخنثين لا يدافعون عن أنفسهم، فأخذت تتطاول عليهم بدون رادع. أريتيريا احتلـت جزرا يمنية، ولم يملك العرب سوى الاستنكار والشكوى، وقامت إثيوبيا التي يتضور أبناؤهـا جوعا باحتلال الصومال ودون حتى استنكار عربي. الأمم تتطاول علينا، وتجرب عضـلاتها بوجوهنا، ونحن كالأصنام الخاوية لا تلبث أن تنبطح مع أول لكمة.

واضح أن الاستنكار قد أصبح جزءا من ثقافتنا العربية: المسؤول لا يجد ما يتغطى به سـوى الشجب والاستنكار والتوعد بأن المرة القادمة ستكون قاسية على المعتدين، والمواطن يتنـدر على المسؤول ويهزأ به وبمواقفه الجبانة. نحن هكـذا مرتـاحون: المسـؤول يتنصـل مـن المسؤولية، والمواطن يحافظ على بلادته. هذه ثقافة مقبولة عربيا الآن، وممارسـتها لا تثيـر التشنج، ولا تستفز الأعصاب، وأغلبنا بالهزيمة ينعم. ثقافة الشجب هي ثقافة هزيمة مستدخلة، وأصبحت الحياة صعبة بدونها. وليس غريبا في ظل هذه الثقافة أننا نحول دائما هزائمنا إلـى انتصار، ونحول النصر الذي حققه حزب الله إلى هزيمة. من الصعب جدا أن نجد في تاريخنا الحديث هزيمة غير مظفرة، وكل هزائمنا انتصارات.

في زخم الحياة، تمر أحداث وأفعال يستنكرها الإنسان وتستنكرها الدول، لكن العرب يشـذون عن الاعتيادي في أنهم يستسلمون للعدوان والإهانة، ويكتفون بردود فعـل لفظيـة أصـبحت

ممجوجة لدى الشارع العربي، ولا تعبر إلا عن العجز والضعف والخضوع للغيـر. فرنسـا تستنكر أحيانا بعض الأمور، وكذلك اليابان وأفريقيا الوسطى وجواتيمالا، الخ، لكن الـدول لا تبني مستقبلها ومستقبل أجيالها على مجرد التعبير عن الاستياء مما تتعرض له مـن إهانـات وإذلال.

ثقافة الشجب والاستنكار العربية خطيرة جدا على الأجيال لأنها تترعرع في جو مـن الجـبن والضعة والهوان، فتظن معه أن الحياة هي هكذا، ولا عيب في تصـعير الخـدود والإذعـان للتصغير والاحتقار. أجيال من هذا النوع تفتقد عناصر تربوية هامـة ذات علاقـة بالشـهامة والإباء والشجاعة والإعداد والاستعداد والنخوة والإصرار على الكرامة. إنها أجيـال تحمـل إرث الآباء المتصف بالتخاذل لتنقله بصورة أكثر تخاذلا للأجيال التي تلي.

الأنظمة العربية أنظمة لا يهمها إلا المحافظة على ذاتها، وهي مستعدة دائما للمسـاومة علـى الأمة وعلى وطنها وعلى ثرواتها وشرفها من أجل أن تبقى في الحكم. مضت سـتون سـنة تقريبا على هذه الأنظمة وهي تنفق الأموال الطائلة على أجهزة الأمـن مـن اجـل ملاحقـة المواطن، والاطمئنان إلى أنه عبارة عن عاهة لا يقوى على الصمود والتحدي. لقـد سـهرت هذه الأنظمة الليالي الطوال من أجل أن يبقى المواطن العربي ذليلا تدوسه نعال أهل الشـرق والغرب. ولا غرابة في النهاية أن لا غضب يتلبس المواطن العربي عندما يرى أن الهزيمـة تتم تغطيتها باستنكار أتفه من صاحبه.